الملازمين وبعض فقرات من كتاب الاقتداء بالمسيح فكان يصغي اليها بكامل وعيه وما زال يتلفظ باسم يسوع ومريم حتى لفظ معها روحه الطاهرة مساء الخميس الواقع في عيد مولد العذراء ٨ ايلول سنة ١٩٢١ متورداً الاسرار مائتاً ميتة الابرار بعد حياة جهاد صرف منها في الرهبانية اربعاً وخمسين سنة مملوءة بالفضائل والاعمال الصالحة

وكانت لوفاته رنّة حزن وزفرة اسف شارك فيها رهبانيّته وذوي قرباه جميع من عرفه من اعيان ووجوه المتن والقاطع وغيرهما ثم نقلت جثته الى دير مار موسى الدوار حيث كان مقرّه وقد ترأس حفلة الصلاة عليه سيادة المطران بولس مراد وكانت الكنيسة غاصّة بجماهير الوافدين للتبرك منه وقد أبّنه حضرة رئيس الرهبانية العام الاب اغناطيوس التنوري مبيناً عظيم فضله وجسيم الخسارة بفقده. وودعه على الضريح بكلام بليغ مؤثر حضرة الخطيب نعوم افندي لبكي احد اعضاء مجلس لبنان النيابي. ثم واروا جسمانه الثرى وذهبت نفسه الى دار البقاء تنال ثواب من عاش الحياة كلها لله تعالى راهباً قانونياً عالماً عاملاً ترك من بعده للرهبانية وللطائفة آثار جليلة تخلد له الذكر الحسن بين اخوته ومواطنيه وتضمن له سعادة الابد. نفضنا الله بصلاته واثابه عداد حسناته

آثار عربيّة في دمشق

لجناب الاديب يوسف افندي اليان سركيس

حضرة مدير مجلّة المشرق الغرّاء

تحيّة واكرام. امّا بعد فلمّا جاء الصيف وضرب الحرُّ اطنابَهُ تاقت النفس الى التجوّل في ربوع لبنان فاستنشقتُ هواءهُ الرطب. وارتشفتُ ماءهُ البارد العذب. ثم سرتُ الى بعلبك وتفقّدت آثارها. بعد ان اعادت لها البعثة الالمانيّة شيئاً من محاسنها في سياق الطوارئ. وكانت دمشق غاية سياحتي ثم منعطف انسي توجهت حذقتي. فجلتُ في شوارعها الناضرة وبساتينها الخطرة وزرتُ بعض مآثرها القديمة والضافية لاسيّما

مجمعها العلميّ الحديث النشأة الذي يتولّى تدبيرهُ الاديب العالم محمّد افندي كردعلي صاحب الهمّة والنشاط. ودخلتُ ميتمها العامر الذي يتولّى تدبيرهُ آل شاميّة حيث وجدتُ الفتيات واولاد المسلمين والمسيحيين يتربّين معاً ويدرسن العلوم ويتعاطين صناعة السجّاد على افضل منوال. وذلك كلهُ ممّا يدلُّ على نهضةٍ ادبيّة واجتماعيّة تشرح الصدور وتثلج القلوب. ومع ما توالى على الفيحاء من النكبات لا يزال السائح يشاهد في انحائها آثاراً قديمة ينطق لسان حالها بعظم شأنها في الاعصر الخالية. ومنها ما يشهد على انكباب اهلها على إحراز المعارف كما يُثبت غيرة حكّامها وسلاطينها في تعزيز التعليم وانشاء نوادي العلوم

وممّا يدلُّ على تهافت الدمشقيّين سابقاً على طلب العلوم كثرة الكتب التي نُسخت فيها واجتمعت في خزائنها. ومع ما تلف منها بكوارث الزمان او بيع للاجانب لا يزال قسمٌ كبير منها عند الخاصّة وبعض الورّاقين. وقد اسعدني الحظّ على اقتناء شيء منها ممّا يدلُّ تاريخها او ورقها على قدم عهدها. فمن ذلك نسخة من كتاب مصابيح السُّنة في الحديث للعالم الفاضل حسين بن مسعود البَغَوي نُصَّ في آخرهِ على طائفةٍ غير يسيرة من الذين قرأوا الكتاب واستفادوا من مضامينهِ. ومن جملتهم احد الملوك الأيوبيّين ابن صلاح الدين الكبير وبعض آلهِ الكرام كما يأتي:

سمع بعض هذا الكتاب وهو المصابيح للبغوي والجزئين الذين (كذا) بعدهُ من الكتاب المولى الملك المفضّل قطب الدين ابو الفتح موسى ابن السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف ابن أيوب نصرهُ الله ورحم اسلافهُ والامير فارس الدولة مَرْقة بن اسحيل والامير تادر الدين يونس وولدهُ شمس الدين محمّد والامير افتخار الدين والفقيه برهان الدين حسن(؟) الرسلان والحكم الاجلّ زين الدين ابو محمّد عبدالله بن الحكيم . . . الخ وذلك في الاوّل من ذي القعدة سنة خمس وستمائة بقلعة صيصاط

وفي دمشق آثار كثيرة ما عدا المخطوطات العربيّة القديمة احببتُ ان اذكر لكم منها اثراً وقع تحت نظري في دار حضرة نسيبي القس المفضال يوسف جبور حيث نزلتُ ضيفاً مكرّماً. والاثر المذكور صفيحة من رخام مصونة بغاية الاتقان منقوشة نقشاً جليّاً ومكتوبة بالخطّ العربيّ العادي تاريخها يرتقي الى أيام السلطان سليمان شاه القانوني في اوائل العشر الرابع من القرن العاشر للهجرة والسادس عشر للميلاد. وموضوع الكتابة كما سترى تعيين التعرفة اي الرسوم التي يجب على اهل الشام

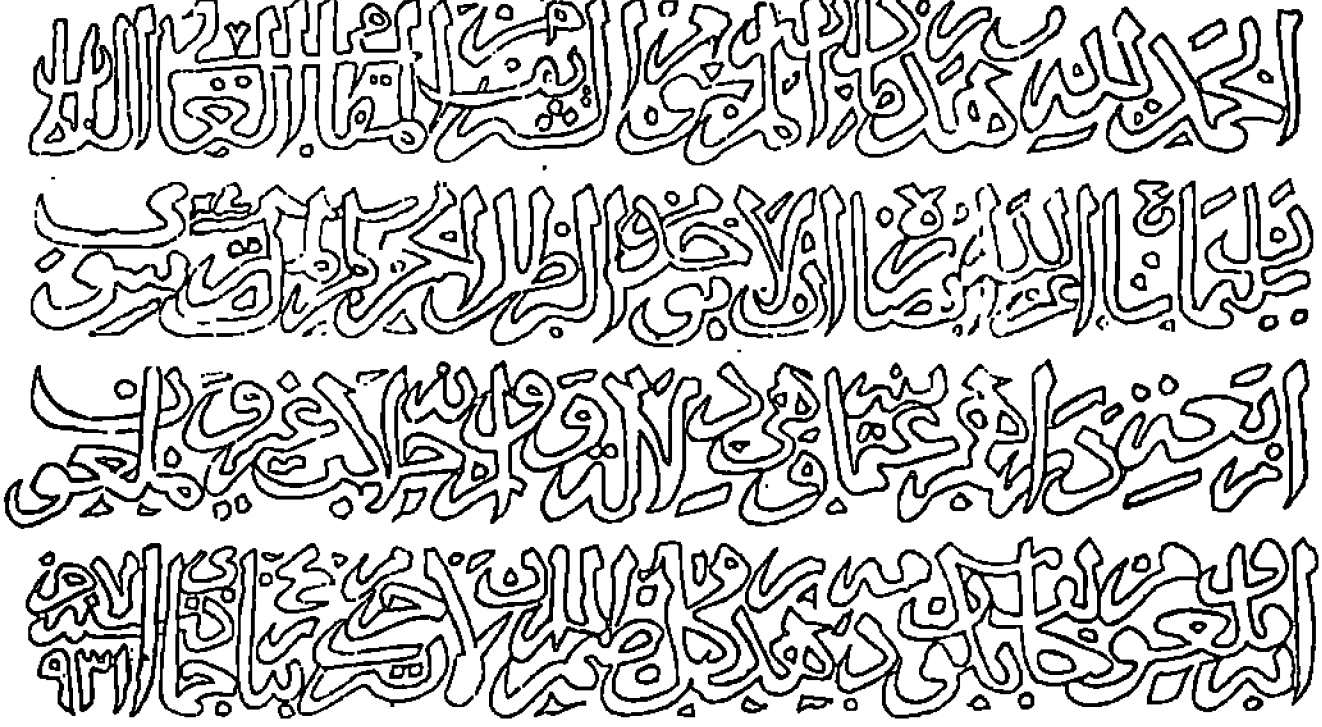

صورة الكتابة العربيّة المكتشفة في دمشق

من عهد سليمان شاه القانوني

دفعها على الحرير وفيه دليل واضح على مزاولتهم صناعة الحرير والاقمشة من قديم الزمان ولا يخفى ما للدمشقيين من طول الباع بشغل الاقمشة الحريريّة ابراً عن جدّ . وقد نقلنا بالطبع هذه الصحيفة ثمّ رسمناها صورةً شمسيّةً كما ترى وهذا نصّها :

الحمدُ لله هذا ما ورد به المرسوم الشريف من المقام العالي السلطان سليمان شلطان اعزّ الله انصارهُ ان لا يؤخذ من الرطل الحرّ كمرك المري سوى اربعة دراهم عثمانيّة وهي دلالة وازنة واجبة لا غير وملعون ابن ملعون من خالف يكون دمهُ هدر وكلّ ضيم للآن لا يُرى ؟ حرّر بتاريخ جمادى الآخر سنة ٩٣١ (١٥٢٥ م)

وقد لاح لي ان هذه الصفيحة كانت ملصوقة على احد جدران الباب الشرقي لكي يراها الداخل الى المدينة ويدفع الرسم الواجب عليه ان كان ناقلاً شيئاً من الحرّ اي الحرير الخام المُعدّ لصناعة الحياكة . ويحملني على هذا الحكم موقعُ بيت القس يوسف جبور الذي لا يبعد اكثر من مائة خطوة من الباب الشرقي . ويؤخذ من هذا الاعلان الرسمي ان صناعة الحرير كانت رائجة بدمشق في عهد السلطان سليمان القانوني وأنّ بعض المحترفين كانوا يؤدّون دراهم زائفة فاضطرّوهم ان يدفعوا مسكوكات خالصة الوزن

ولعلّ احداً يعترض على دفع رسم الجمرك كيف كانت تتعاطاهُ الحكومة في داخل المملكة فالجواب على ذلك انّ هذا الرسم الداخليّ ثبت زمناً طويلاً ولم يبطل الّا من عهدٍ قريب . وانا اذكر انّ المرحوم والدي الذي كان يتعاطى صناعة الحرير في بيروت في حدود سنة ١٨٦٤ كان اذا ادخل قماشاً الى المدينة من باب سوق ابي نصر او من باب الدبّاغة يدفع للجمرك رسماً على الحرير الخام وعلى القماش المصنوع

فالرجاء من حضرة مدير المشرق ان يذكر لنا شيئاً من صناعة الحرّ ومصنوعات الحرير بدمشق فتكون لهُ من الشاكرين

جواب المشرق

كلّ يعلم انّ بلاد الشام عموماً وفينيقية خصوصاً كانت مورد الانسجة الثمينة والاقمشة البديعة عدة اجيال قبل المسيح كفى شاهداً على ذلك ما ورد في سفر حزقيال النبي في فصليه السابع والعشرين والثامن العشرين حيث يصف تجارة صور ولسواقها وغناها وقد خصّ بالذكر ارجوانها ووشيها وانسجتها الفاخرة ومن جملتها الحرير

وقد صرّح بذكر دمشق من جملة عمّال صور

لكنّهم اختلفوا في لسم «الحرير» المذكور هناك وهو في العبرانيّة رلموت (ראמות) لزعمهم انّ الحرير لم يُعرف في ذلك الوقت في بلاد الشام وانّ المراد به نسيج كانوا يصطنعونهُ في بلاد الكلدان وجزائر اليونان من مفرزات بعض الحشرات البرّيّة من غير دود القزّ

وما لا يُنكر ان الفينيقيين عرفوا الحرير الصينيّ في القرن الاول قبل المسيح كانوا يبتاعونهُ على صورة الخزّ الخام فيقصرونهُ وينسجونهُ ويصبغونهُ الوانًا ثم يبيعونهُ لارباب الدول بأغلى الاثمان في رومية وبقيّة البلاد وشاع عنهم ذلك حتى عُرف الحرير عند الرومان بالنسيج الفينيقيّ او الصوريّ

ثمّ راج سوق الحرير وكثرت المعامل لاصطناعهِ في برّ الشام لولا انّ قيصرة رومية ثم ملوك الروم بعدهم في القسطنطينيّة احتكروا كل انسجة الحرير واختصّوا نفوسهم بشرائها وبيعها فكانوا يحصّلون منها المبالغ الطائلة

وبقي الحرير الصيني مجهول الاصل حتى ان كثيرين من الكتبة كانوا يزعمون انّهُ يُجنى على شجرة صينيّة الى ان تمكّن سنة ٥٢٢ راهبان ارسلهما الملك يوستنيان الى الصين فأتيا ببزر دود القزّ خفيةً عن اهلها وكشفا سرّهُ للروم فاسرع السوريّون الى تربيتهِ والى غرس اشجار التوت لطعامهِ. لكنّ احتكارهُ بايدي الدولة كان عقبةً كؤودًا في مزاولة تلك الصناعة

ودامت الحال على ذلك الى ان دخل العرب بلاد الشام وجعل الامويّون دمشق حاضرة ملكهم فانّ صناعة الحرير انتعشت بعد خمولها. وكانت دمشق اوّل مدينة نالت منها نصيبها فان معاوية لمّا ابتنى قصرهُ المعروف بالخضراء افرز فيهِ قسمًا لنساجة الحرير ووشي الثياب الملوكيّة وهو ما عُرف بدار الطراز استدعى لاستحضارها صَنَعة السوريين النصارى فخرجت من معاملهِ اثواب من الحرير والديباج او الابريسم كان يفتخر الملوك والاعيان بلبسها ينسجون بخيوطها الذهبيّة الملوّنة نقوشًا مختلفة وكتابات شتى مزركشة . قال ابن خلدون في مقدّمتهِ :

«وكان القائم على النظر فيها يسمّى صاحب الطراز ينظر في امور الصنّاع والآلات والحاكة فيها واجراء ارزاقهم وتسهيل آلاتهم ومشارفة اعمالهم وكانوا يقلّدون ذلك لخواصّ دولتهم وثقات مواليهم. وكذلك كانت الحال في دولة بني اميّة في الاندلس »

ثم سعى اهل حلب وصور في مزاحمة دمشق فأنشأوا المعامل الشهيرة التي راجت مصنوعاتها في اقاصي بلاد الغرب وكان السوريون النصارى منهم واليهود ينقلون الى تلك الاقطار منسوجات الشام فيربحون بيعها المبالغ الوافرة

ولما احتل الصليبيون بلاد الشام كثيراً من مدنها كتبتهم حوائر دمشق وبيروت وطرابلس وحمص وحلب . وفي القرن الثالث عشر زار الشريف الادريسي دمشق فوصفها بما حرفهُ :

« ومدينة دمشق جامعة لصنوف من المحاسن وضروب من الصناعات وانواع من الثياب الحرير كالقزّ والديباج النفيس الثمين العجيب الصنعة والعديم المثال الذي يُحمل منها الى كل بلدة ويتجهز به منها الى كل الآفاق والاعصار المسافة لها والمباعدة عنها . وصانعها في كل ذلك عجيبة تضاهي ديباجتها بديع ديباجة الروم وتُقارب ثياب دستر وتنافس اعمال اصفهان وتشفّ على اعمال طُرز نيسابور من جليل ثياب الحرير المُصمتة وبدائع ثياب تنّيس وقد احتوى طُرزها على اثنين من اعمال الثياب النفيسة وحاسن جمّة فلا يعادلها جنس ولا يقابلها مثال »

وقد اصاب دمشق بعض الخمول في صناعتها لما دخلها تيمورلنك في اوائل القرن الخامس عشر ونقل صنّاعها الى العجم لكنّها عادت بعد حين فجدّدت معاملها . لنا على ذلك شاهد في ما كتبهُ مرسلان كاتوليكيان مرّا بها في القرن السادس عشر وهو عصر السلطان سليمان القانوني الذي ورد ذكرهُ في الكتابة المرسومة في هذه المقالة قالا : « ليست دمشق اقلّ شهرةً بمنسوجاتها الجميلة وحرائرها الرائج سوقها في كلّ البلاد منها بجدلتها وضروب اثمارها الطيبة وخورها » . ويقال انّ الرايتين اللتين تُربتان قبر صلاح الدين قد نُسجتا في ذلك العهد

على أن نشاط مدن السواحل ونصارى لبنان في تربية القزّ واستحضار حرائرهِ وبيعها لتجّار الفرنج في صيدا وطرابلس وبيروت وعكّة وحمص اخذ همّة الدمشقيين . وزد على ذلك ظلم ولاة العثمانيين وضرائبهم الفاحشة التي كانت تشلّ يمينهم في العمل . كتب احد سيّاح الفرنج المدعو فرمانل (Fermanel) انّ ولاية حلب في القرن السادس عشر كانت تدفع للباب العالي كلّ سنة ثلاثة ملايين ليرة . ولعلّ دمشق كانت تتكلّف مثل ذلك وموقعها التجاري دون حلب . فلمّا رأت حكّام سوق الحرائر حمل اهلها الى اصناف تجاريّة غيرها وانهم تهمل حياكة الحرائر ومعظم ما كان فيها من الاتوال في العصر الاخير بين خمسة آلاف الى ستّة آلاف نول ل-ش